

يوم 8 مارس 1917 تظاهرت النساء في بتروغراد، عاصمة روسيا، للمطالبة بالخبز و بعودة أقاربهن من جبهة الحرب. كان ذلك أول أيام الثورة الروسية.

لا تتدلح النضالات الاجتماعية الكبرى في الفترات الهادئة بل في المنعطفات الظرفية، عندما يتدهور وضع الشرائح الشعبية أو يتحسن فجأة. هذا الوضع معروف في روسيا، في فبراير 1917: كان ثمة تفاقم حاد لازمة التموين بارتباط مع حرب لم يكن تبدو لها نهاية. ارتفاع مياغت في الأسعار (+ 40 %) مع اعتماد بطاقات تقنين الاستهلاك، والكل تحت درجة برد تصل 20 إلى 40 درجة تحت الصفر. الجوع يزمجر و صفوف الانتظار تطول، والنساء ينتظمن و يتعبان لدرجة اقتحام المخبزات و متاجر الأغذية. لا سيما أنهن لا يستسغن وجود أزواجهن أو أبنائهن بجبهة القتال وعودتهم منها في حال يرثى لها. وغالبا ما كن يحللن مكانهم في المصانع حيث يتعزز لديهن حس التضامن و يكسبن استقلاللا و قتالية. ولو كانت ثمة آنذاك استطلاعات رأي لبلغ القيصر والجنرالات أدنى مستوى.

في أسبوع، انهارت القيصرية

تبنت مناضلات تقليدا يعود إلى العام 1909، قطعت الحرب مذاك، تقليد 8 مارس اليوم العالمي للمرأة. يوم 8 مارس 1917 (23 فبراير في التقويم السنوي الجريجوري)، قررن الإضراب والنزول إلى الشارع، من أجل الخبز و ضد الحرب. هيأت منظمة تروتسكي الوحودية المسماة "ما بين المقاطعات" [كان هو آنذاك سجيناً بمعسكر في كندا] منشورا. ومنع المسؤولون البلاشفة أي دعوة إلى الإضراب و إلى التظاهر معتبرين أنهما محفوفان بالمخاطر (حصلت للتو هزيمة مضربي مصنع بوتيلوف). لم تتضبط المناضلات لذلك و قمن في قطاع النسيج بإضراب، و حاولن جر عمال التعدين المجاورين، المتحفظين جدا، إلى المظاهرة. ومع ذلك جرت المظاهرة المسرحين. "انه يوم عيد". هكذا عبر ملاحظ للوضع.

ويوم 9 مارس واطبت النساء و نجحن هذه المرة في جر باقي عمال التعدين إلى جادة نيفسكي، متفادين الجسور التي يحرسها الشرطة ليعبروا نهر النيفا على الجليد. وكانت المواجهات مع قوات الشرطة عديدة، فيما كانت المتظاهرات يسعين إلى اتصال سلمي مع الجنود الذين كانوا عمالا وفلاحين في زي عسكري. وكان المنظمة الثورية الرئيسية، الحزب البلشفي، غير شرعية، وقادتها في السجن أو سيبيريا أو في المنفى بالخارج. و كانت الوسائل المادية محدودة جدا ، ولم يصدر أول منشور سوى صباح يوم 10 مارس. وتتالت الأحداث بوتيرة جنونية، ووجب الارتجال ساعة بعد ساعة.

وفي اليوم الثالث، شمل الإضراب مجموع مصانع العاصمة. و انضم الطلاب إلى الحركة. و أصبح البلاشفة هم من ينظم الإضرابات والمواكب، بصيحة " الخبز! " و " تسقط الحرب! " و " تسقط الاتوقراطية! " و صدر الأمر إلى قوات القمع لإطلاق النار و سقط قتلى بين المتظاهرين. و في المساء اعتقل عدد من القادة البلاشفة.

وفي اليوم الرابع، يوم الأحد 11 مارس، نُصبت أسلحة رشاشة على السطوح و أطلقت النار على 200 ألف متظاهر. و أُعلنت حالة الحصار. و كان المسؤولون الباقون بالغى التردد، لا سيما لتعذر التفاهم حول الشعارات بين المنظمات، وحتى داخل كل منها. لكن القمع، الذي من شأنه أن يهدئ الوضع في حالة تراجع، كان له في حالة المد النضالي مفعول معاكس و رفع كفاحية الجماهير. هذا لا سيما أن القيصر، مثل لويس السادس عشر، لم ينصت للتحذيرات التي جاءت من كل جانب، و رفع درجة الاستفزاز بحل الدوما (البرلمان). (و جرى إحراق العديد من المباني الرسمية، منها قصر العدالة. و أصبح حي فيبورغ بأيدي سكانه العمال. وتمردت سرية جنود رافضة الامتثال، و أطلقت النار على الشرطة بدل إطلاقها على المتظاهرين. و ليلا اصدر الحزب البلشفي ومنظمة " ما بين المقاطعت "مناشير تدعو إلى التأخي بين الجنود و المتظاهرين.

وفي اليوم الخامس تمرد فيلق. و عند نداء الصباح جرى قتل الجنرال الذي جاء لتلاوة تعليمات القيصر، ثم ذهب الجنود ليجوبوا التكنات و المعسكرات. وعم التمرد. و بعد الزوال، كان التأخي بين العمال المتظاهرين والجنود، و جرى اجتياح مخزن السلاح وتوزيع 40 الف بندقية واقتحام السجون و تحرير المساجين بلا تمييز بين السياسيين ومعتقلي الحق العام.

و في اليوم السادس، تم اعتقال وزراء القيصر. و عين القيصر في اليوم السابع حكومة جديدة. وفي اليوم الثامن، وفيما بلغ الغليان كامل روسيا، مرغما السلطات على عدم التدخل، تنازل القيصر عن العرش بعد استشارة هيئة أركان الجيش.

ازدواجية سلطة

إن كان الثوريون يتفاجؤون بالثورات، فتفاجؤ غيرهم أكبر. في البداية كانت المعارضة الليبرالية سلبية بالكامل. وكانت ترى في القيصر حمايتها الأسمى بوجه الشارع. لكن سرعان ما أدركت "أنا اذا لم نستول على السلطة فالآخرون سيقومون بذلك، أولئك الأوغاد الذي ينتخبون مندوبين في المصانع" (على حد قول النائب شولغين في اليوم السادس). (وهكذا قام النواب الذين لم يتجرؤوا على الاستيلاء على السلطة لما حل القيصر البرلمان بتأسيس لجنة دوما مؤقتة في قصر التوريدي، مكلفة في البداية بـ "استتباب النظام في العاصمة و ربط الصلة مع المنظمات المؤسسات العمومية "بلا أقصى اليمين و لا البلاشفة [الذين جرى اعتقال بنوابهم السنة ونفهم] ثم حكومة مؤقتة.

في لحظة ذاتها، أنشأ عمال بتروغراد تلافانيا مجالس (سوفييتات) من ممثلين منتخبين للعمال والفلاحين و الجنود، على الشكل الذي وجدت به في العام 1905. كانت بعض المقاولات قد انتخبت سوفييتات لكن دون تنسيق من أسفل. ولم تكن خطوات سوفييات بتروغراد واثقة بنفسها جدا، لكن مع قوة الحركة الثورية تغير ذلك بسرعة فائقة. و تشكلت سوفييتات بالمدن الرئيسية ثم في القرى. و قامت ازدواجية سلطة بين هذه السوفييتات و الحكومة المؤقتة حتى نوفمبر (ثورة أكتوبر)

مقال صدر في:

Rouge n° 2196 du 8 mars 2007

تعريب المناضل-ة